

السؤال الاول

وعلى هذاالأساس فأنه يمكن القول أن الثورة التي اندلعت في الهند عام 1857م كانت ثورة ضد النفوذ الغربي وذلك لأن استمرار الشركة في ضم الأراضي الهندية واستخدامها لكافة الأساليب الغربية في كل مناطق الحياة الهندية، كشفت للعقل الهندوسي والمسلم عن وجود مجهود دائب لإحلال حضارة عربية محل حضارة الهند.

والواقع أن سياسة الابتزاز التي اتبعتها الشركة وتدهور الوضع الاقتصادي في الهند كان على رأس دوافع ثورة 1857م ففي الوقت الذي راحت فيه الشركة تستخدم سياسة "فرق تسد" للإيقاع بين الأمراء المسلمين بإعانة بعضهم بالمال والرجال على حساب الطرف الآخر، راحت في ذات الوقت توقع الفرقة وتغزي النزاع بين المسلمين والهندوس وقد لجأت في ذلك إلى مساعدة الهندوس ضد المسلمين، وما كاد ينتصف القرن الثامن عشر حتى أمسكت الشركة بدخول الولايات الإسلامية وغير الإسلامية في شبه القارة الأفريقية وكان هذا بطبيعة الحال له آثار سلبية هدامة على الأوضاع الاقتصادية في الهند، فقد وصلت الحالة الاقتصادية في الهند قبل الثورة إلى درجة كبيرة من التدهور والارتباك فقد أصبح الكثير من ملاك الأراضي في حالة فقر مدقع بسبب الابتزاز ولم تعد الزراعة تتحمل عبء الملايين من ملاك الأراضي وتأخرت الزراعة وأصيبت الصناعة بالتخلف والانحطاط نتيجة سياسة الشركة في العمل على ضرب الصناعة الوطنية والقضاء عليها بالإضافة إلى ذلك سياسة استغلال خيرات البلاد، وبطبيعة الحال فقد ترتب على سوء الأوضاع الاقتصادية الداخلية انتشار معدل البطالة بين الموظفين الهنود وشعر الشعب الهندي بالظلم والتعسف وبخاصة في عهد دلهوزي وترتب على ذلك عدم دفع رواتب الموظفين وتخفيض بعض المرتبات الأخرى ومن ثم أصبحت النفوس مشحونة ووصلت إلى حالة الغليان والانفجار في عام 1857م.

والدوافع أنه كان من أهم نتائج خضوع الهند لسيطرة شركة تجارية تحولت إلى حاكم استعماري تؤيده القوة البريطانية هي القضاء على المؤسسات الاقتصادية في شتى أرجاء الهند والقضاء على نظام حيازة الأرض والصناعات والهيئات التعاونية وانعكست سياسة الشركة على انهيار التجارة الهندية المزدهرة كما انهارت أيضاً الطبقة الهندية المتوسطة التي كانت آخذة في النمو، ولم تكن النتائج التي وضحت في نظام حيازة الأرض أقل قسوة.

كان الأثر البريطاني في الهند أكثر عمقاً من أي أثر خلفه الغزاه السابقون منذ مجيء الآريين، إذ استطاع البريطانيون عن طريق سلطتهم السياسية أن يحققوا تحولاً اجتماعياً عميقاً بإعادة توزيع القوة الاقتصادية.

الواقع أن الآثار السلبية الهدامة للشركة قد امتدت إلى النواحي الاجتماعية والدينية على أثر انتشار بعض مظاهر المدنية الأوروبية في الهند، فقد كانت بعض الإصلاحات التي قامت بها الشركة والإنجليز في الهند موجهة مباشرة ضد العقائد والعادات التي يمارسها الهنود من قديم الزمان مثل محاولة القضاء على عادة حرق الأرامل بعد موت الزوج والذي صدر قانون 1856م بشأنه عندما أباح زواج الأرامل الهندوسيات بعد موت الزوج وليس حرقهن بالإضافة إلى تحريم خنق الهنود الذين يعبدون الآلهة "كالي" وجهود الإنجليز في القضاء على عادة وأد البنات، هذه المظاهر التي سددت ضربة قاصمة لعقائد الهنود ومشاعرهم الدينية وقد نبهت هذه المظاهر الشعب الهندي إلى ما تحمله من أخطار على ذاتيتهم خاصة وأن هذه المظاهر جاءت مصاحبة لنشاط البعثات التنصيرية التي أعلنت صراحة عن هدفها محاولة تنصير الهنود وراحت تعلن بياناً في كلكتا تحث فيه الهنود على اعتناق الديانة المسيحية، لأنه مادامت أقاليم الهند المختلفة قد أصبحت مرتبطة بعضها ببعض بوسائل المواصلات الحديدية والبرقية فقد حان الوقت الذي يرتبط فيه أهل الهند بدين عام موحد هو الدين المسيحي.

والواقع أنه على الرغم من أن شركة الهند الشرقية البريطانية حرصت منذ البداية على معاكسة البعثات التنصيرية وذلك لأن التجارة كانت شغلها الشاغل، كما أنها كانت تحرس أن التدخل غير المناسب في العادات الاجتماعية والمعتقدات – والممارسات الدينية الطعن في الهندوكية والإسلام هو عمل ضار بمصالح الشركة التجارية، كما أنه يعود على مصالحهم السياسية بأفدح الضرر، أقول أنه على الرغم من معارضة الشركة لنشاط البعثات إلا أن تلك البعثات اتخذت من كلكتا قاعدة لها وشرعت في الهجوم على الهندوكية والسخرية من عادات – الهندوس والمسلمين على حد سواء.

لقد بدأ رجال البعثات حملة دعاية عنيفة على الهندوكية على أمل أن تكون نفخة في النفير الذي يدعو إلى دك جدران الهندوكية دكاً لا رجعة بعده وراح كبار الموظفين يعملون على ترغيب صغار موظفيهم في اعتناق المسيحية، حتى أن الموظفين الهنود لم يكن يرتاحون لهذه الأعمال التي تهددهم في دينهم وتشوه صورة معتقداتهم أمام أعينهم.

كان نشاط رجال الدين قد امتد إلى المدارس، فراحت بعض المدارس الحكومية تنظم دروساً خاصة لتدريس الإنجيل كما أن نشاط هذه البعثات قد وصلت إلى المستشفيات والسجون والأسواق.

وفي حقيقة الأمر فإن رجال البعثات التنصيرية لم يحاولوا في أغلب الأحوال أن يقنعوا الهندوس والمسلمين بالعقل بالديانة المسيحية ولم يسوقوا لهم دليلاً واحداً على صدق رأيهم وصواب دعواهم، ولكنهم في معظم الأحوال كانوا يسددون الطعنات ضد العقائد الهندية ويشوهون صورة هذه العقائد ويظهرونها بمظهر غير حضاري ولما كان الدين وتر حساس يمس شفاف الناس فإنه يبدو أن رجال البعثات التنصيرية قد تجاهلوا أن عقائد الهند في ذلك الزمان هي عقائد الآباء والأمهات والأجداد وأنهم يؤمنون بهذه العقائد إيماناً لا يدع مجالاً للشك في أنه الدين الحق، ومن هنا كان الحساب الختامي لهذه الممارسات هو الغضب العام والعارم وشعور السخط على الشركة وعلى الإنجليز وعلى الأجانب.

والواقع أن قيام الإنجليز ببعض الإصلاحات مثل إدخال السكك الحديدية والتلغراف وانتشار التعليم الغربي وجعل اللغة الإنجليزية هي لغة التدريس في نظام التعليم الهندي وقانون 1856م بتعميم الحقوق المدنية، كل هذه الإصلاحات ساهمت بشكل أو بآخر في غضب الشعب عام 1857م، فقد راح الشعب الهندي يربط بين هذه المظاهر المدنية وبين الغرض الخبيث من ورائها وأدرك الشعب الهندي أن الواقع من وراء ذلك له هو هدم حضارتهم والقضاء على ذاتيتهم وكيانهم ومحو طابع عقائدهم وحياتهم التي تعودوا عليها، فتطبيق القوانين المدنية الإنجليزية على الهنود منذ قانون 1856م على سبيل المثال لم يرق لكثير من الهنود ولم يقابلوه بالارتياح وذلك لأن هذه القوانين قد أوقعتهم فريسة سهلة لفئة من المحتالين والدجالين وألحقت بهم أضرار كثيرة، وبالإجمال فإنه أصبح الشعور العام أن الإنجليز يستخدمون الشركة في محوهم وعاداتهم من الوجود وعلى هذا فقد ظهر الغليان والجيشان في ثورة 1857م.

على أية حال فإن ثورة عام 1857م قد فشلت نتيجة عوامل كثيرة منها أنها لم توهب المثالية ولا التنظيم ولا القوة اللازمة لبناء دولة تتسلم الأمور من البريطانيين وتحافظ عليها ولها القيادة.

 والواقع أنه كان من بين أسباب فشل ثورة 1857م هو افتقار هذه الثورة إلى اشتراك الطبقة المثقفة من الجنود وعزوفها عن التفاعل والتعاطف مع الثوار، بل على العكس من ذلك فقد وقفت الطبقة المثقفة من هذه الثورة موقفاً معارضاً مما أفقد الثورة الخلفية الثقافية والعقل المفكر للثورات دائماً.

السؤال الثانى

ا-

ازداد غضب الشعب الصيني في المدن الخمس التي فتحت بموجب المعاهدات للتجارة الأجنبية وعلى الأخص في كانتون حيث ظل الموقف متوتراً وخصوصاً عندما أوقف الصينيون سفينة تهريب ترفع العلم البريطاني وقبضوا على ملاحيها بتهمة التهريب في أواخر عام 1856م، وفي الوقت نفسه كثرت الحوادث بين الأهالي والإنجليز وذلك لأن الشعب الصيني الذي كان يقوده طبقة المتعلمين كان ساخطاً على شروط المعاهدة التي أبرمتها حكومته.

 وعلى هذا الأساس حدثت عدة حوادث مقاومة ضد السماح للأجانب للاستقرار في أراضي الصين فقد كانوا يهاجمونهم ويرجمونهم في الشوارع، وظل الموقف متوتراً في مدينة كانتون إلى أن قرر الإنجليز – بإرسال بعض السفن الحربية من هونج كونج لمهاجمة الحصون الساحلية.

 ولما كان ما حدث من إهانات للإنجليز في الصين قد حدث أيضاً للفرنسيين، ولما كان نابليون الثالث إمبراطور فرنسا يسعى إلى كسب أمجاد حربية يعزز بها تاجه الجديد، فقد انتهز الفرصة واتفق مع إنجلترا على عمل عسكري مشترك ضد الصين.

 وفي ديسمبر عام 1856م ضرب الإنجليز كانتون بالقنابل ثم نقل البريطانيون والفرنسيون ميدان القتال إلى أقرب الموانئ للعاصمة بكين وأخذوا يضربون حصونها بالقنابل، فبادرت الحكومة الصينية بطلب الصلح.

 وفي حقيقة الأمر فإن حرب الأفيون الثانية (1856م-1860م) كانت تكرار لحرب الأفيون الأولى من ناحية الأسلحة والأساليب المتبعة، فلقد استعانت البحرية الملكية البريطانية بخمس وعشرين سفينة مجهزة بالمدافع أو يزيد وعدد من البواخر الصغيرة في الهجوم على كانتون وعلى الأسطول الصيني وعلى تحصينات تاكو بالقرب من بكين ومن ثم طلبت الحكومة الصينية الصلح.

 ولقد وقعت الصين معاهدات جديدة عام 1858م يطلق عليها معاهدات تبتسن مع الدول الغربية، وعلى الرغم من أن روسيا والولايات المتحدة لم تشتركا في المعركة، إلا أنهما قد أرسلتا مندوبيهما للاشتراك في توزيع الغنائم، وكان أهم شروط هذه المعاهدات:

1. التصريح للأجانب بالاتجار في عدة موانئ أخرى بخلاف المدن الخمس.
2. ضرورة التسامح الديني لأهل الصين مع المسيحيين والسماح للبعثات التنصيرية بممارسة نشاطها في الصين.
3. مشروعية تجارة الأفيـون.
4. فتح نهر بانج تس للتجارة الأوروبية.

ولكن ما لبث الصينيون أن نقضوا شروط المعاهدة فقرر الإنجليز والفرنسيين معاودة القتال وأرسلوا قوة مشتركة فاستولت على الحصون واتجهت في الداخل شمالاً نحو العاصمة بكين فعاد الصينيون إلى فتح باب المفاوضات نتج عنها عقد سلسلة جديدة من الاتفاقيات مع الأجانب أطلق عليها اسم اتفاقيات بكين عام 1860م وكان أهم بنودها:

1. حق الإقامة للسفراء الأجانب في بكين.
2. ضم كلولون إلى القاعدة البريطانية في هونج كونج.
3. أصبح ميناء تبتسن مفتوحة كيفية الموانئ التي شملتها المعاهدات.
4. أعادت إلى الكاثوليكية كل أملاكهم التي صودرت منذ عام 1724م.

على أية حال فقد كان من أشر الهزائم التي منيت بها أسرة المانشو في الصين واضطرارها إلى قبول معاهدات مذلة أن ضعفت وأخذت تسير نحو الهاوية.

 وفي أثناء السنوات التي تلت تلك المعاهدات أصيبت البلاد بالثورات الداخلية وأعمال السطو والنهب والفيضانات والأوبئة وقد أدى ذلك الانحلال في أواخر القرن التاسع عشر إلى فقد الصين للمناطق التابعة لها والخاضعة لسيادتها مثل بروما والهند الصينية واضطرت للتنازل عنهما لبريطانيا وفرنسا، كما ضعف سلطانها على إقليمي سنكيانج ومنغوليا الخارجية.

 وخلاصة القول أن ضعف تسليح الصين في حربي الأفيون الأولى والثانية وقوة تسليح الدول الأوروبية هي التي ساعدت على سيطرة الأوروبيين على الصين فلم تعد البواخر والسفن النهرية المجهزة بالمدافع لمجرد عتاد حربي وحسب ولكنها أصبحت أيضاً رموزاً للتسلط الأوروبي على شعوب الشرق الأقصى التي تملك شواطئ ساحلية وأنهار صالحة للملاحة، ولقد راح أحد أنصار الفتوحات الاستعمارية يلخص الموقف بقوله "...لقد كانت البواخر من المحرضات السياسية بفضل ما تحتويه من عتاد قادر على نطق لغة مفزعة في عصر التقدم".

ب-كان النظام الإداري الذي رسخه مؤسس الأسرة وخلفه ما زال يعمل بكفاءة واقتدار في عهد كانج تي الذي بلغ فيه البرتغاليون الصين لأول مرة، وكان نواب الإمبراطور وحكام الأقاليم يعالجون المشاكل بمهارة وكفاية وقدرة وبالإجمال فإنه يمكن القول أنه من أبرز الظواهر التي يتسم بها تكوين الصين السياسي حتى معاهدة تيان تسن 1858م، كانت هي الولاء والقدرة التي كان نواب الملك بالصين ينفذون بها سياسات الإدارة المركزية، وذلك حتى حين كانت حكومة بكين نفسها ضعيفة وفاسدة وعديمة الكفاية.

 ويمكن تفسير ذلك في ضوء أن الإمبراطور الصيني كان يعتبر نفسه أنه ابن السماء أو نائب السماء على الأرض وأن كل الملوك ما هم إلا توابع يجبرون على دفع الجزية، وذلك يعود بالدرجة الأولى إلى تأثير تعاليم كونفوشيوس في تشكيل الهوية الصينية فقد جاء الإمبراطور في تعاليم كونفوشيوس على قمة الجهاز السياسي مقدساً وممجداً ومشاراً إليه بالبنان؛ فهو مفوض من السماء ليحكم الشعب الصيني أفضل شعوب الدنيا وهو موقر باعتباره نائباً عن الإله، وعلى هذا فقد تأثر الأباطرة بتعاليم كونفوشيوس فنادوا بخضوع كل الأهالي للإمبراطور وخضوع الإمبراطور للسماء.

 على أية حال فإنه مع وصول البعثة السياسية البرتغالية بقيادة "بيريزالي كنتون" وطلب مقابلة الإمبراطور في بكين، كان قد بلغ إلى مسامع بلاط أسرة منج معلومات تؤكد الأغراض الخبيثة التي جاء البرتغاليون من أجلها، فقد كان سلاطين شبه جزيرة الملايو تابعين لحماية الإمبراطور الصيني وراحوا يستنجدون بالإمبراطور الصيني على هؤلاء الأجانب الذين جاءوا تحت ستار التجارة من أجل غزو البلاد واستغلالها، كما أن تصرف رجال البعثة الدبلوماسية بقيادة بيريز قد تصرفوا بطرق تدعو للشك والريبة وعدم الثقة حينما حطوا رجالهم في شانج تشوان وأخذوا يتصرفون بالطريقة التي اعتادها البرتغاليون بالملايو، فشرعوا في بناء قلعة وقاموا بأعمال قرصنة وعلى هذا راح الأسطول الصيني يجليهم عن البلاط ورفض الإمبراطور استقبال سفير البرتغال بيريز.

 والواقع أن الإمبراطور الصيني قد رفض التعامل مع البرتغاليون نظراً لأعمال القرصنة العلنية التي كان يمارسها مكتشفي البرتغال وعلى أوسع نطاق في أعلى البحار الآسيوية ونظراً لما ارتكبه البرتغاليون من اعتداءات على الشواطئ التي وصلوا إليها، بالإضافة إلى ذلك فإن مطامع البرتغال السياسية هي التي دفعت إمبراطور بكين على إغلاق الباب أمامهم، فقد كان ملك البرتغال قد اتخذ لنفسه لعب سيد الملاحة وادعى البرتغاليون أن لهم الحق في الملاحة بالبحار الشرقية وحق الاحتكار الشامل، واحتفظوا لأنفسهم بالحق في مصادرة جميع بضائع كل من جرؤ على شق عباب البحر دون إذن منهم كما ادعوا حقهم في النزول إلى البر وبناء الحصون وامتلاك المناطق والاتجار معها ولما كانت البرتغال في ذلك الزمان لا تعترف بأية حقوق دولية ولما كان الامبراطور الصيني لا يريد أية مشاكل ولما كانت تقارير حكام جزر الملايو غير مطمئنة عن سلوك هؤلاء الأجانب، أقول انه لما كان الأمر على هذا النحو راح امبراطور بكين يرفض أية تعاملات مع البرتغاليين.

 وفي حقيقة الأمر فإنه على الرغم من المحاولات الدبلوماسية المتتالية من قبل البرتغاليين لفتح باب المعاملة مع بكين، إلا أن الرفض المهين كان نصيبها على الدوام حتى القرن التاسع عشر، وفشل البرتغاليون في إقامة المراكز والقلاع أمام حرص الصينيين على عدم السماح للأجانب بامتلاك أراضي في بلادها، لكنهم واصلوا ممارسة التجارة مع المواني الجنوبية ولم يكن هناك أي خطر خاص على التجارة وعلى هذا راح حكام الصين المحليين يشجعون الاتصال التجاري بالأجانب الذين كانوا يستجلبون البضائع الثمينة لبيعها.

 ومنذ عام 1557م سمح التجار البرتغال باستخدام شبه جزيرة بحرية مهجورة وهي "ماكاو" لكي يتخذوا منها موضعاً ينزلون فيه بضاعتهم ويقومون من خلالها بتجارتهم وظلت ماكاو على وسعها ذلك حتى 1887م.

 على أنه من الجدير بالملاحظة في هذا الصدد أن البرتغاليين ظلوا حتى عام 1849م يدفعون إيجار تلك الأرض بانتظام وأن الحكومة الصينية كانت لها اختصاص السلطتين المدنية والجنائية في مكاو وظلت المحاكم الصينية تعمل بها حتى عام 1690م، ولم يكن يجوز حتى 1843م بناء المساكن بمكاو دون دفع الرسوم المقررة على ذلك إلى السلطات الصينية ويعني ذلك أن مكاو لم تكن أبداً في يوم من الأيام ملكاً خالصاً للبرتغاليين ولم يكن وضعهم في "ماكاوا" إلا وضع ملتمس ضارع متواضع ذليل ليس لبلاط بكين ولكن لموظف مرؤس بمدينة كانتون.

السؤال الثالث

وعلى الرغم من التشجيع الذي لقيته تلك الإرساليات في عهد نوبوناجا وعلى الرغم من التشجيع الذي لقيت من قبل حكام الأقاليم الأقوياء خاصة المتنصرين منهم وعلى الرغم من جهر بعض حكام الأقاليم باعتناقهم الديانة المسيحية بالإضافة إلى بعض الأهالي إلا أن ذلك لا يعني أن عملية التنصير سارت على قدم وساق دون تعديات أو معوقات بل على العكس من ذلك فقد أثار ذلك حفيظة الرهبان البوذيين وزاد من غضبهم وردود أفعالهم ضد هذه الحركة، فراحوا يمارسون ضغوطاً شديدة على الشوجون الجديد هيديوشي 1536م-1598م.

 وفي هذا الصدد كتب أحد المؤرخين يقول أنه كاد التشجيع الذي لقيته بعثات التبشير المسيحية في عهد نوبوناجا أن يجلب على الدولة الكوارث، لولا أن قيض الله للبلاد زعيماً عسكرياً خلفاً له جمع إلى جانب الحكمة بعد النظر أيضاً، فلم يكن هيديوشي بالقائد العادي، بل كان وطنياً عظيماً ورجل سياسة وتدبير بعيد النظر واسع الخيال وصاحب تنظيم عبقري، وقد حرص في البداية شأن سلفه نوبوناجا على المحافظة على حسن العلاقة بينه وبين البرتغاليين ومبشريهم، بيد أنه كان يرقب الأمور ببصيرة نافذة، فلاحظ أن البرتغاليين أنزلوا المدفعية إلى البر لحماية المنطقة التي كان يعيش فيها من أدخلهم المبشرون إلى المسيحية، وعندما زار إحدى السفن البرتغالية ليرى الأب كويلهو، لاحظ أن المركب كان ثقيل التسليح وإن كان صغير الحجم، وكان متنبهاً تماماً إلى اهتمام حكام الأقاليم بأسلحة البرتغاليين وعتادهم الحربي، فضلاً عن محاولتهم تقوية أنفسهم بعقد أواصر الصداقة مع الأجانب، وتصرف هيديوشي بحزم حتى إذا فرض فى عام 1587م حظر على المبشرين القيام بأي نشاط في كل أرجاء اليابان.

 والواقع أنه على الرغم من أن "هيديوشي" قد تبنى سياسة مناقضة تماماً لسياسة سلفه "نابوناجا" في التسامح مع الإرساليات التبشيرية المسيحية وعلى الرغم من حظره للديانة المسيحية منذ عام 1587م إلا أنه يبدوا أنه لم يتخذ تدابير صارمة حتى تلك الفترة لمنعها على الرغم من هذا التحريم فقد أكدت بعض الوثائق استمرار تدفق الإرساليات المسيحية الأجنبية في المرحلة الأولى من عهده وقد ارتفع عدد المسيحيين في أواسط عهده إلى ما يزيد على 200 ألف مسيحي بالإضافة إلى وجود مسيحيين داخل بلاطه كما أنه يبدو أن أحد أبنائه قد اعتنق المسيحية.

 ولكن الحادثة التي حدثت في عام 1596م جعلته يتخذ تدابير أكثر عنفاً وصرامة عن ذي قبل، فمنذ عام 1592م وفدت إرساليات الفرنسيسكان الأسبان التي جاءت من الفلبين في الوقت الذي كان فيه هيديوشي يقود حملة لاحتلال العالم دامت أكثر من خمس سنوات تمتعت فيها الإرساليات الدينية بحرية شبه مطلقة للتنصير.

 كان الأسبانيون قد استقروا في بلاد الفلبين وفتحوا مجموعة من الجزر الرئيسية وكانت لليابانيين مع بلاد الفلبين علاقات تجارية مع السلطات منذ أقدم العصور ولم يكن هيديوشي يمانع في الدخول في مفاوضات تجارية مع السلطات الأسبانية التي انتهزت الفرصة وأرسلت إرساليات الفرنسيسكان الأسبان من الفلبين إلى اليابان ولكن في عام 1596م حدثت حادثة أفسدت ذلك تماماً، وذلك لأن إحدى البواخر الأسبانية دفعتها الريح إلى سواحل اليابان ويبدو أنها تعمدت ذلك، وقد تم احتجاز هذه الباخرة وتبين من التحقيق أنها كانت محملة بكمية كبيرة من الليرات الذهبية لاستخدامها في الإعداد لغزو اليابان عسكرياً.

 وتقول بعض المصادر الأخرى عن حقيقة هذه الباخرة أنها دفعتها الريح مصادفة وأن حاكم الإقليم الذي أنقذ الباخرة ادعى ملكية ما عليها من بضاعة وأن قائد الباخرة راح يروي للحاكم مفاخرة ومباهياً بأمجاد الأسبان غزاة المكسيك وبيرو وبسالتهم وقد صادفت تلك الحادثة عودة الحاكم "هيديوشي" من حملته الفاشلة لاحتلال الصين وكان الشك والريبة تملأ قلبه من قبل لكل حركات البرتغاليين في الشرق وخشي بالفعل من غزو الأسبان لليابان فأمر بجميع الأسبان في البلاد فاعتقلوا ثم صلبهم في نجازاكي متهماً إياهم بالجاسوسية.

 وتؤكد المصادر أن "هيديوشي" أمر بصلب 26 من رجال الإرساليات الدينية وأتباعهم من اليابانيين في 5 فبراير 1597م وكان بينهم 6 من الآباء الفرنسيسكان و3 من الآباء اليسوعيين الفرنسيين، واستطاع الهرب إلى خارج اليابان حوالي 120 من الآباء اليسوعيين الذين توجهوا إلى مالقه وكانت محصلة حملة الاضطهاد لعام 1597م هدم وإغلاق 127 كنيسة ومدرسة.

 والتفسير الموضوعي لهذه التصرفات هو أنه يبدو أن الشوجون هيديوشي قد خشي على عرشه بعد حملته الفاشلة على الصين فتخوف من نفوذ رجال الإرساليات الدينية والتفافهم حول بعض حكام الأقاليم الذين تنصروا، بالإضافة إلى ذلك فإن كثرة النزاعات بين الإرساليات الدينية الأجنبية العاملة في اليابان، يبدو أنها بدأت تهدد نظام القيم الاجتماعية السائدة فى اليابان والمبني على التسامح التام في شئون المعتقدات الدينية.

 على أية حال فإن حملة الاضطهاد التي قام بها الشوجون هيديوشي قد استمرت عاماً واحداً فقط لأنه توفى في 17 سبتمبر 1598م مخلفاً ورائه اياسوتوكوجاوا.

 بدا الرجل متسامحاً في سنوات حكمه الأولى وراح يباشر التفاوض مع القوى الخارجية عبر قنوات رسمية تحددها الحكومة وليس عبر وسطاء من رجال الدين التابعين لإحدى الإرساليات الدينية الأجنبية ولكنه منذ عام 1606م راح اياسو يظهر تشدداً تجاه الإرساليات الكاثوليكية استمرت تصفية الإرسالية الكاثوليكية حتى وفاته عام 1616م وقد قدرت الكنيسة الكاثوليكية عدد ضحايا الاضطهاد الديني في تلك المرحلة بأكثر من 3000 قتيل منهم 70 من رجال الدين الكاثوليك الأجانب ولكنه في نفس الوقت سمح لبعثات البروتستانت الألمان بالعمل في اليابان منذ عام 1609م كما سمح لبعثات البروتستانت الإنجليز بالعمل منذ عام 1613م.

 ويبدو أن تزايد تأثير المسيحية على المذهب الكاثوليكي بعد أن اعتنقها عدد من حكام المقاطعات، كان أحد أهم الأسباب التي دفعت اياسو إلى تصفية أنصارها خصوصاً بعد أن تحولت إلى قوة سياسية استخدمها أطراف النزاع على السلطة كمدخل للتعاون مع قوى خارجية، فعلى سبيل المثال نجد أن حكام مقاطعة "كيوشو" وهم من ألد أعداء "اياسو"، كانوا ممن اعتنق المسيحية، وزاد في خطورة الوضع أن إعلان قادة الساموري انتماءهم الصريح إلى المسيحية قد أثار رد فعل محلي لدى مجلس قيادة الشوجون وحكام المقاطعات الأخرى، والرهبان البوذيين ومن ثم فقد كان على أياسو والحالة هذه أن يتخذ سلسلة مستمرة من التدابير الرادعة ضد الإرساليات الدينية، فراح يطرد الجزويت من مقاطعة موتسو وكلف حكام المقاطعات باتخاذ تدابير صارمة ضد تلك الإرساليات، وهذا ما دفع الرهبان من البوذيين إلى جعل اياسو بعد وفاته رمزاً من رموز ديانتهم وذلك لدعمه القوي للبوذية كديانة رسمية لليابان فراحوا يقيمون له المعابد كواحد من المصلحين اليابانيين الكبار في التاريخ الحديث، وراوحوا يبالغون في احترامه لدرجة القداسة وأقاموا معابد بوذية باسمه كرد فعل ضد حركة التغريب التي قادتها الإرساليات الدينية الأجنبية ومن تعاون معها من حكام المقاطعات.

 ويبدو أن اياسو كان على حق في تصرفاته مع الإرساليات الدينية وذلك لأن مساعديه قد بدأوا يقدمون له مذكرات تفصيلية عن الطرق التي تتبعها أسبانيا والبرتغال في غزو البلاد مستخدمين رجال الإرساليات كحصان طروادة في هذا الغزو.

 ولقد راح خلفه في الكم "هيديتاوا" يصدر تعليمات في عام 1624م تحظر العلاقة مع الأجانب وتضع المتواجدين منهم في اليابان تحت رقابة السلطة المركزية، وقد اتضحت له خطورة هؤلاء الأجانب حينما لاحظ أن انتفاضة الفلاحين التي اندلعت في عام 1637م في مقاطعة كيوشو قد ضمت في صفوفها عدداً كبيراً من المسيحيين، وهذا يفسر قيامه بقمع تلك الانتفاضة بقسوة بالغة أودت بحياة الغالبية الساحقة من المتمردين كما تمت تصفية رجال الإرساليات واتباعهم من اليابانيين خلال معارك 1637م-1640م فتوارى المسيحيون في اليابان انكمشوا طوال ما يزيد على الفرنسيين من الزمان على أثر تلك المجازر الرهيبة والتي راح ضحيتها حوالي 20 ألفاً من الفلاحين المسيحيين.

 ويبدو في الواقع أن عصيان الفلاحين المسيحيين الذي شب في عام 1637م في شميارا بمقاطعة كيوشو قد أظهر مدى خطر انتشار المسيحية على نظام حكم هذا الشوجون، بالإضافة إلى ذلك أنه كان على علم تام بنشاط البرتغاليين والهولنديين والأسبان والإنجليز بجزر المحيط الهادي وبخاصة جزر الفلبين وملقه وجاوة وهذا ما دفع الحاكم لضرورة معالجة أمر الأجانب بشدة وحزم وحرمانهم من كل فرصة تمكنهم من الحصول على مواطئ قدم بالأراضي اليابانية خاصة وأنه وصلته أخبار عام 1622م عن خطة أسبانية لغزو اليابان قبل أن تدعى البرتغال ملكيتها لهذا البلد ولكن جاء رد فعل الشوجون هيديتاوا قوياً وحاسماً مع قراره بأبعاد الأسبان جميعاً من بلاد اليابان ووضعه سياسة حازمة تتعلق بالقضاء على اليابانيين المسيحيين وتوصيد أبواب اليابان في بعض سنين في وجه جميع الأمم الأوروبية على السواء.

 ومع إصدار الشوجون هيديتاوا أوامره بحظر الديانة المسيحية رسمياً منذ عام 1637م ومنع الاتصال بالأجانب إلا عن طريق الدولة دخلت اليابان في عزلة اختيارية طوعية عن العالم الأوروبي حتى منتصف القرن التاسع عشر وهذه العزلة هي الملمح الخامس في تاريخ اليابان الحديث وخاصة في فترة شوجونية التوكوجاوا منذ عام 1637م وحتى انتهاء فترة حكم هذه الأسرة في عام 1868م.